الصحافة الاستقصائية في الإعلام التلفزيوني والإعلام الجديد
التطور التاريخي ومعايير البناء الخبري

د.العربي بوعمامة
جامعة مستغانم (الجزائر)
أ.حفيظة بوخاري
جامعة مستغانم (الجزائر)

مقدمة:

تعد صحافة الاستقصاء مجالا للتحري عن مجريات وملابسات الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تهم الصالح العام، انطلاقا من مبدأ: حرية التعبير والحق في الوصول إلى المعلومة، وعرضها كمجال للنقاش الحر من قِبَل الجماهير، ولاسيما فيما يخص علاقة السلطة الحاكمة بالشعوب، لتؤدي بذلك دور الرقابة كسلطة رابعة، في اعتراف منها بشرعية سلطة خامسة مجتمعية تجد في الإعلام منبرا للتعبير، وحتى للمطالبة بكشف التجاوزات المتعلقة بحالات القمع السياسي والجرائم المنظمة، والاحتيال والنصب داخل مؤسسات الاقتصاد، وغيرها من الحقائق المتستر عنها.

وبغض النظر عن الوسيلة أو الوسيط المستخدم في الاستقصاء، يبقى هذا الخبر رهانا تحكمه سلطة التمويل المالي ومتغير السبق الصحفي، الذي يحُول أحيانا بينه وبين الطرح الموضوعي النزيه، بالإضافة إلى كون الصناعة الإعلامية الآن صناعة "تكنولوجيا خبر" أكثر من أن تكون "نقل خبر محض"، وفي ذلك تأتي الثقافة الإخبارية البصرية التي يبثها التلفزيون على وجه الأخص لتطرح الإشكال المتعلق بمصداقية الصورة في زمن تكنولوجيات الإعلام، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن مصداقية الخبر الاستقصائي أمام الزخم التكنولوجي للصورة المرئية بحد ذاتها.

ولمناقشة حيثيات هذا الموضوع، تمّ التطرق إلى مجموعة من العناصر الرئيسية، والتي تتفرع بدورها إلى عناصر ضمنية:

I-صحافة الاستقصاء: التطور التاريخي ومعايير البناء الخبري:

1-1-ظهور وتطور صحافة الاستقصاء.

1-2-الخبر الاستقصائي: من الفرضية إلى الطرح.

II-السرد الاستقصائي في الإعلام التلفزيوني والإعلام الجديد:

2-1-بنية الخبر الاستقصائي في التغطيات التلفزيونية.

2-2-الخبر الاستقصائي في ظل صحافة المواطن.

III-التوجه التكنولوجي في التغطية الاستقصائية التلفزيونية:

3-1-مصداقية المعادل البصري/التكنولوجي.

3-2-ثنائية الديمقراطيا والتكنوقراطيا وحدود التمفصل.

I-صحافة الاستقصاء: التطور التاريخي ومعايير البناء الخبري:

1-1-ظهور وتطور صحافة الاستقصاء:

إن مساءلة تاريخ الإعلام بصفة عامة ليكشف جذور هذا التوجه الصحفي الاستقصائي الذي يعد حديثا من حيث منهجية العمل فيه، إلا أنه في واقع الأمر يمتد إلى كون الصحافة بالأساس صحافة قائمة على التحقيق وتوجس خلفية القضايا الاجتماعية والاقتصادية ولاسيما السياسية، عبر سلطة تردع ما قد يصدر عن السلطات الثلاث الأولى (التشريعية والتنفيذية والقضائية) من حالات الانتهاك والتجاوز القانوني، "لهذا السبب نتكلم منذ زمن طويل عن السلطة الرابعة، هذه السلطة الرابعة التي كانت في نهاية المطاف، وبفضل الحس المدني لوسائل لإعلام وشجاعة الصحفيين الجريئين، موضوعة بتصرف المواطنين من أجل انتقاد، صد، ومجابهة –ديمقراطيا- قرارات غير شرعية، يمكن أن تمثل جورا وظلما وحتى إجراما بحق أناس أبرياء، فكانت الصحافة كما قيل مرارا صوت من لا صوت لهم."[1]

وبالتالي فالاستقصاء ضرب من ضروب الصحافة، إلا أنه نوع يبحث في العمق وفي ما لا يظهر على العلن، وقد عرف باسم الصحافة الاستقصائية وسمي صحفيوه بالمنقبين عن الفساد "وقد أطلق هذا الاسم على مجموعة الصحفيين الذين قادوا حملات صحفية مهمة ضد الفساد خاصة عام 1901م، حين أدى التوسع الصناعي السريع بعد الحرب الأهلية إلى الكثير من أنواع الظلم، وكانت الاحتكارات موضع قلق عام، ورأى فيها بعض المراقبين تحالفا غير سديد بين التجارة والسياسة (...) وبرزت حركة المنقبين عن الفساد كقوة مهمة عام 1906م، ثم بلغت قمة النجاح عام 1911م، ثم تبددت عام 1912م، حيث بدأ الجمهور يبتعد عنها، وكذلك تعرضت الصحف لكثرة الضغوط المالية، مما أدى إلى اختفاء هذا اللون من الصحافة"[2] إلا أنه سرعان ما اكتسب أهميته من جديد لفعاليته في مواكبة الظروف العامة.

أما عن البداية الفعلية للصحافة الاستقصائية كنوع مستقل وقائم بذاته، فقد "انطلق منذ الستينات مع الرئيس تيودور روزفلت، وفريق المنظفين أصحاب الحملة ضد الفساد والرشوة."[3]

كما وتزايد الاهتمام بها في سبعينات القرن العشرين مع الصحف الأمريكية، كنوع من الارتجال في سرد الحقائق والخروج عن المألوف، "ولعب المراسلون أدوارا حاسمة في كشف ما يعرف فيما بعد بأخطر فضيحة في فترة ما بعد الحرب الثانية، حيث تابع الصحفيون في واشنطن قرائن خلفتها سرقة في مبنى للمكاتب في "ووترجيت"

وواصلوا تحرياتهم إلى أن أوصلتهم تحرياتهم إلى البيت الأبيض، وقد دفعت التقارير الإخبارية الخاصة بالسرقة، الكونجرس الأمريكي إلى بدء تحقيقات أدت في نهاية الأمر إلى استقالة الرئيس الأمريكي "ريتشارد نيكسون" من منصبه بعد إدانته هو وكبار معاوينه عام 1974م، وأشهر المحررين الذين قاموا بالتغطية الاستقصائية، كلا من: Ward Cary Bernstein، وBbwood، بجريدة الWashington Post."[4]

وساهم التمويل المالي في دعم استقصاءات صحفية عديدة، حققت رواجا كبيرا في السبعينات وامتد نجاحها إلى غاية 1976م، أين تم تأسيس اتحاد المندوبين والمحررين الاستقصائيين إذ "أصبح هناك منظمة أو صندوق مستقل هو Fund of investigative journalism تموله المؤسسات والأفراد، وقد نجح هذا الصندوق في تمويل أكثر من 60 مشروع تغطية استقصائية خلال الفترة من سبتمبر عام 1971 وحتى سبتمبر 1973م (...) وفي عام 1976م تأسس اتحاد المندوبين والمحررين الاستقصائيين Investigative 'IRE' reporters & editors كجماعة صحفية لا تهدف إلى الربح."[5]

وفي أواخر عام 1976م "شكلت الجماعة فريق عمل صحفي بقيادة محرر جريدة Newsday الشهيرRobert Green لإجراء تغطية استقصائية عن الجرائم التي أدت إلى اغتيال Ballston محرر جريدة Republic Arizona الذي كان يقوم باستقصاء نشاط الجريمة المنظمة في ولايته أريزونا، حيث وضعت قنبلة في سيارته (...) وقد اغتيل ثمانية وستون صحفيا عام 2001م، ويرجع سبب اغتيال خمسة عشر صحفيا منهم إلى أعمال استقصاء عن قضايا الفساد وهذا رقم ينذر بالخطر."[6]

وتطورت الصحافة الاستقصائية لتلعب دور المحقق الميداني والمتقصي في عديد دول العالم، ليصل مداها إلى بعض بلدان الوطن العربي ولو أنها لا تزال حديثة فيها، ورغم العراقيل التي تواجهها هذه الصحافة على العموم من ضرورة توفير الموارد المالية والبشرية، ومغالاتها أحيانا في تغطية الأحداث عبر توظيف عنصر الإثارة، إلا أنها تظل تحتفظ بمكانتها الرائدة في تعقب المغالطات؛ كما وأصبحت الصحافة الاستقصائية لا تلك الصحافة التي تكشف قضايا الفساد وتبييض الأموال والجرائم المرتكبة فقط، وإنما التي تهتم كذلك بالقضايا المجتمعية، كقطاع التعليم والصحة والمرافق العمومية الأخرى، مستهدفة توضيح علل ونتائج المشاكل المتضمَّنة فيها، ما قد يتطلب شهورا أو سنوات من البحث والعمل.

1-2-الخبر الاستقصائي: من الفرضية إلى الطرح:

يقول الصحفي الأمريكي رائد الصحافة الاستقصائية دافيد كابلن David E.Kaplan: "الصحافة الاستقصائية الجيدة تركز على مواضيع التعليم، واستغلال السلطة، والتهافت على الأموال، وقصص الأعمال الرائعة، ولمجرد تغطية الصحفي المختص

لمواضيع الجرائم والفساد وملاحقة آخر تطوراتها، فذلك لا يعني أنه يستخدم أدوات الصحافة الاستقصائية."[7]

وبالتركيز على النقطة الأخيرة الواردة في هذا التعريف الواسع للصحافة الاستقصائية، فإن هذه الأخيرة تختلف كثيرا عن التحقيقات الأخرى التي يجريها الصحفيون العاديون، كما أنه لا يمكن لأي صحفي أن ينتقل إلى العمل الاستقصائي دون توفر مجموعة من المقاييس، وفي مقدمتها القدرة الشخصية على التعاطي مع هذا النوع من الصحافة، والتمكن من مجاراة الأحداث وتطورات القضايا، بالإضافة إلى امتلاك حس التنقيب والقدرة على التحمل والصبر في التعامل مع مصادر المعلومات، والقيام بدورات تدريبية وتكوينات صحفية متخصصة وغير ذلك من النشاطات الأكاديمية والميدانية التي تؤهله لهذا المنصب، وعلى العموم فإن "طبيعة الاستقصاء تقدم فرصا عظيمة بوصفها وسيلةً للتلقين، وتعلُّم العديد من المعايير الأكثر أهمية والخاصة بحرفة الصحافة: كيفية المثابرة، كيفية التعامل مع مختلف شرائح الناس، كيفية تأطير القضايا ونسج خيوطها، كيفية العثور على المصادر البشرية، كيفية إقناعهم بالتكلم، كيفية العثور على الوثائق ومختلف الأدلة، وتدقيق الرأي، المراوغة واكتشاف مكامن الكذب وصولا للواقع، وأهمية إثبات الحقيقة، وهلُمَّ جرًّا."[8]

فالتحقيق في قضية ما لا يعني بالضرورة وجود صحافة استقصاء، إلاّ إن أخضع الصحفي عمله لمجموعة من الخطوات الإجرائية التي تشكل لوحدها المنطلق الرئيس نحو الاستقصاء، إذ أنه حسب كابلن "نهج منظم لحدس، يتطلب الغوص في العمق والبحث الفعلي الذي يقوم به الصحفي بنفسه (..) يتناول طريقة علمية في البحث معتمدة على وضع فرضية واختبار مدى صحتها، والتأكد من الحقائق المحاطة بهذه الفرضية، ونبش الأسرار المغمورة، ووضع ركائز العدالة الاجتماعية والمساءلة، بالإضافة إلى الاستخدام المفرط للتسجيلات المعلنة."[9]

وقبل التعريج على أهم الخطوات المتبعة في صياغة خبر استقصائي، سيتم التطرق إلى العناصر الكتابية المشتركة بين التحرير الصحفي العام، والتحرير الاستقصائي، ونجد هنا توافقهما في طرح ذات الأسئلة: من، ماذا، أين، متى، لماذا؟ إلا أن الإجابة عنها في الاستقصاء تقتضي تحليل العناصر كميّا ونوعيّا، وخصوصا البحث في "كيف" أي في الأسباب والدوافع والأهداف الغير جلية، وتقاطعات المكان والزمان، إذ أنّ:

"«من» ليست مجرد اسم ولقب بل وشخصية لها صفة وأسلوب مميزان،
وليست «متى» فقط حاضر وقوع الأخبار، بل سياقا تاريخيا للسرد،
وليست «ماذا» مجرد حدث، بل ظاهرة لها أسباب ونتائج،

وليست «أين» مجرد عنوان، بل موقعا أو مكانا تصبح فيه إمكانية وقوع أحداث أو أشياء معينة ممكنة أكثر أو أقل."[10]

ويكاد يكون الاستقصاء الصحفي بحثا علميا، يستنبط من البحث الأكاديمي ما يحقق سبيلا للحصول على المعلومات بدقة، والتوصل إلى نتائج موضوعية؛ وإن إجراء المقاربة العلمية في الصحافة الاستقصائية مؤشر على تعاطيها العمَلي البنّاء مع قضايا الرأي العام.

وتتمثل أهم خطوات الاستقصاء الصحفي في:

أولا: اكتشاف موضوع آني جدير بالبحث، أو وجود قضية ما لم تفك بعد حيثياتها، وقد تمتد رواسبها إلى أحداث أخرى وقعت في زمن مضى.

ثانيا: تحديد زاوية المعالجة في الموضوع المكتشف، بغية تسهيل سبل جمع المعلومات، كما ولابد على الصحفي الاستقصائي صياغة المشكل في قالب فرَضي، بمعنى طرح فرضيات تجيب مبدئيا عن تساؤلاته، وهذه الفرضيات ينبغي التحقق من صحتها في مسار البحث.

ثالثا: الشروع في جمع المعلومات من المصادر الأقرب للقضية، ولا يجب الاستهتار أو التقليل من أهمية أي مصدر: "فالكل من حولك مصدر، كما قال "مونك ماني" لأن جمع المعلومات والوصول إليها عملية شاقة وصعبة في معظم الأوقات، وقد يستغرق الصحفي سنوات للوصول إلى المعلومات والوثائق والسجلات."[11]

وتقسم هذه المصادر إلى مصادر علنية ومصادر بشرية: الأولى متعلقة بمضامين وسائل الإعلام، "فالمعلومات التي نشرت في أي وسيلة إعلامية يَسهُل الوصول إليها بحرية، وعادة ما يمكن الوصول إلى هذه المعلومات في مكتبة عامة أو في أرشيف الوسيلة الإعلامية المعنية:

- الأخبار (الصحف، المجلات، التلفزيون، الراديو، الانترنت).
- منشورات متخصصة تخص الاتحادات، الأحزاب السياسية، النقابات، الخ.
- المنشورات الأكاديمية من دراسات وأبحاث.
- وسائل إعلام مشتركة متخصصة (مثل منتديات مستخدمي الانترنت، المحللين الماليين، نشرات أو مجلات النقابات، مجموعات الاحتجاج، الخ)."[12]

أما المصادر البشرية فتتمثل في محاولة الوصول إلى الشخصيات التي تمُدّ الصحفي بالمعلومات التي يبحث عنها، ويكون هذا باجتهاد شخصي من قِبَلِه، حيث "تعتمد التغطية الاستقصائية على مواد جُمعت أو أستقيت بمبادرة شخصية من الإعلامي، ولهذا فإنها تسمى أحيانا كثيرة: تغطية المشروع."[13]

لذا فعلى الصحفي أن يتسم بالتنظيم في رسم خريطة مصادره: "تستطيع أن تجعل خريطتك معقدة وغنية بقدر ما تريد، وعلى سبيل المثال تستطيع تدوين مواقع سكنى

المصادر الأفراد، تواريخ ميلادهم، وظائفهم، أو أي شيء تحب، ولكنك تستطيع في البداية أن تكون أكثر بساطة، وقد لا تحتاج إلى أن تذهب أبعد من ذلك (وحتى وجود خريطة مصادر بسيطة جدا تأخذ منك بضع دقائق لتحضيرها، ستمنحك مزية على معظم منافسيك)."[14]

رابعا: ويبقى عنصر التنظيم هو الأساس، إذ "يجب أن تكون هذه المادة منظمة بفاعلية على أسس مستمرة، وهذا العمل التنظيمي هو جزء من عملية منهجية للكتابة والنشر، فأنت لا تقوم بالبحث، ثم تنظم، ثم تكتب، بدلا من ذلك أنت تنظم وأنت تبحث، وهذا التنظيم يجهز الأرضية لعملية الكتابة."[15]

ولعل ما يميز هذا النوع من الصحافة هو مرتكزها الذاتي، ليس ذاتية الصحفي في التحيز إلى جانب دون آخر، وإنما ذاتيته نحو معرفة الحقيقة، فالتغطية الاستقصائية "تستخدم بطريقة موضوعية مواد ومعلومات حقيقية تتحول إلى حقائق (...) ويحرك الصحافي الاستقصائي هدف ذاتي غير موضوعي يتمثل برغبة في إصلاح العالم."[16]

II-السرد الاستقصائي في الإعلام التلفزيوني والإعلام الجديد

2-1-بنية الخبر الاستقصائي في التغطيات التلفزيونية

إن المسؤولية الملقاة على عاتق الصحافة الاستقصائية تتعاظم في خضم الحديث عن التغطية التلفزيونية، أين يجد الإعلامي نفسه محكوما بسلطة الصورة التي من المحتم إخضاعها لمنطق الحقيقة وإلا كانت مجرد تزييف للواقع وإقصاء له في إعلام يدعو للاستقصاء.

كما وتتميز البنية السردية للخبر في الشاشة التلفزيونية بسمات لا تتوفر في الوسائل الإعلامية الأخرى، فإن كانت الكلمة المكتوبة سمتها المشتركة مع الصحف، والكلمة المسموعة سمتها المشتركة مع الإذاعة، فإن الصورة -رمزية كانت أو حيّة- تبقى خاصيتها المتفردة؛ وكلما كان حضور الصورة قويا كلما زاد تأكيدا على قوة الخبر ذاته، "فالصورة تُكمِّل القصة الإخبارية الكلامية، بل إن بعض الصور يمكن أن تكون خبرا قائما بذاته، بإضافة تعليق قصير عليه أو بدون تعليق."[17]

وإن الصورة التي تحكي حدثا قد لا تحتاج إلى كلمات تفسرها فمضمونها البصري كافّ، وفي هذا المقام يقول أديب خضور أن الكتابة التلفزيونية "تقوم على أساس إدراك حقيقة مقدرة التلفزيون العالية على التجسيد الفني للمضامين المختلفة، وذلك بسبب تنوع عناصر التجسيد الفني في اللغة التعبيرية التلفزيونية (الصوت، الصورة، الحركة، الألوان، الإضاءة، الديكور، الموسيقى، المؤثرات الصوتية)."[18]

وأسلوب الكتابة الاستقصائية للتلفزيون يستنبط مكوناته من هذه اللغة التعبيرية "لأنه موجه إلى العين والأذن معا، فالصورة تخاطب العاطفة والقول يجذب العقل (...) ومن

المفترض أن تكون لغة تحرير الأخبار التلفزيونية لغة الحياة العملية المتسمة بالبساطة والوضوح والاعتماد على الإيقاع السريع والنسق المباشر والواقعي حتى يستوعبها الجمهور على الفور"[19] ويكمن نجاح هذه الكتابة في قدرة الصحفي على تقديم معلوماته في قصة مرئية، فالمشاهد يبحث عن الصورة التي تشكل بالنسبة إليه دليلا على صدق الصحفي وحسن سبره لأغوار القضية المعالجة، وإلا كانت مادته مجرد لغط.

في هذا الإطار، يكون على الصحفي تطبيق خطوات الاستقصاء، من اكتشاف موضوع ووضع فرضيات والوصول إلى مصادر معلومات، إلا أن المشكل يتعلق بهذه المصادر التي قد ترفض الظهور على الشاشة، إذ يتعامل الصحفيّ مع مصادر خفية، وقد تتسرب إليه معلومات من أفراد يفضلون كتمان هويتهم عن الجمهور المتفرج، "وليس مفاجئا أن المعنيين بالأمر هم الأكثر ترددا في الحديث بصراحة، أمام ذلك كيف تتعامل مع مصادر قلقة تريد الإدلاء بتصريح بدون تسجيله؟ (...) تحدثت إلى أشخاص كثر بدون الكشف عن هويتهم، ذلك أنه إذا كشفت هويتهم للآخرين يصبح الكلام علنيا، من المهم جدا أن تحتفظ بنسخ مدونة بما قيل وأن تتأكد من أنك حصلت على عناوين البريد الإلكتروني وعناوين منزلية وأرقام هاتفية للمصادر المهمة."[20]

وعلى الصحفي القيام بعرض صور تحاكي القضية كما هي، وتعمل على إقناع المشاهِد والإجابة على التساؤلات التي يطرحها، بالإضافة إلى وجوب توفر معايير أخرى في التغطية الاستقصائية ككلّ:

"-أسلوب منهجي في التحقيق وبحث وتغطية متعمقان على المدى الطويل.

-تصميم ومثابرة للبحث عن المعلومات.

-البحث الوثائقي، واستخدام السجلات العامة، ومتابعة السجلات الورقية، واقتفاء أثر المستندات.

- إجراء المقابلات على نطاق واسع.

- استخدام أدوات وتقنيات حل الجريمة.

- جمع المعلومات المتباينة في تقرير واحد متماسك.

- الكشف عن معلومات يرغب آخرون في إخفائها.

-ا لتغطية الإبداعية والموحية والتي تضيف كثيرا إلى الرصيد العام والنقاش العام.

- سلطة للمراقبة والرصد مع التركيز على مساءلة ومحاسبة الأفراد والمؤسسات التي تمارس السلطة.

- الاضطلاع بدور الحارس الذي يحمي الناس من انتهاكات الموجودين في السلطة، ومركزا على مسؤولية الأفراد والمؤسسات ذات التأثير."[21]

أما في ما يتعلق بخطوات إعداد تحقيق تلفزيوني في مجال صحافة الاستقصاء، فسيتم استوضاحها في النقاط الآتي ذكرها وفقا لعمل: وحدة الصحافة الاستقصائية التلفزيونية بقناة "أون تي في" ONTV المصرية:

"-بعدما نستقر على صياغة الفرضية نصيغها في شكل عنوان وملخص سريع،

-وبعد أن يتم التأكد من الفرضية بشكلها الأوليّ، تبدأ رحلة البحث والتحقيق المكلف بها الصحفي في الوحدة الاستقصائية، يستغرق الصحفي الاستقصائي بعدها أسبوعا كاملا في البحث فقط والإعداد للتحقيق،

-يقوم الفريق بعد ذلك بإرسال تصور مبدئي للميزانية المطلوبة للإنتاج وفقا لحدها الأقصى (...) ثم يقومون بإعداد خطة التصوير التفصيلية،

-وبعدها يشرعون في التصوير الفعلي والذي يأخذ عادة أسبوع،

-ثم يأتي الأسبوع الثالث لتبدأ عملية المشاهدة لما تمّ تصويره وتفريغ جميع الصور واللقاءات على الورق استعدادا للمونتاج المبدئي (...) فشهر واحد هو ما يحتاجه التحقيق على أقصى تقدير في تلك المرحلة."[22]

2-2-الخبر الاستقصائي في ظل صحافة المواطن

يقدم الإعلام الجديد خيارات إخبارية متعددة، من حيث القدرة على مطالعة مضامين الصحف المكتوبة إلكترونيا (أي عبر أعدادها الإلكترونية) وكذا متابعة برامج القنوات الفضائية، وإمكانية إعادة المشاهدة، والتفاعل، والمشاركة بالرأي من خلال الكلمة المكتوبة أو بالصورة- أو حتى بالمقاطع السمعية البصرية، الأمر الذي يتيح فرصة أمام الفرد العادي ليكون باثًّا للخبر، ليشمل لقب "الصحفي" غير المتخصصين أيضا، وهم أفراد من مختلف الجنسيات والمستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية.

وفي هذا الإطار تبرز صحافة المواطن، التي تستمد بثها الخبري من نبض الشارع لتتكلم بصوت الشعب، ليس ضد انتهاكات السلطات الثلاث فحسب بل وسلطة الإعلام كذلك، أين "تحولت صحافة المواطن إلى سلطة خامسة هدفها تحرير الصحافة بوصفها سلطة رابعة من حالة الالتفاف السياسي والاقتصادي والتوظيف الفئوي والمصلحي الذي تعيشه (...) فإذا لم يكن الجمهور طرفا رئيسيا في إثارة الجدل حول قضايا الشأن العام فإن ذلك يعني أن كل من الصحافة والديمقراطية في خطر."[23]

والإعلام الجديد أو الإعلام البديل كما يسمى، يفتح المجال واسعا لكل مستخدم للتدوين الإلكتروني، ويسمح للأشخاص المضطهدين وحتى أولئك الذين لم يجدوا فرصة للإدلاء برأيهم، أن يعبروا بكل حرية عن حالات سلبية يعيشونها في حياتهم اليومية، بالكتابة عنها أو تصويرها علنا أو خلسة ثم تشاطرها والجمهور العام أو الخاص الذي يختارونه، كشكل جديد من أشكال ممارستهم للديمقراطيا.

ومادام الفرد العادي لا يملك مصلحة من محاولة تغطية الفساد وعلى رأسه الفساد السياسي، فإن كل خبر ينشره قابل للتصديق، إذ لا يحتاج فيه اللجوءَ إلى التزييف أو التضليل؛ وفي مسار الحديث عن صحافة المواطن كنوع صحفي تفاعلي ناقد، فهل انتقل المواطن العادي ليكون صحفيا استقصائيا؟ وهل النشر السمعي البصري -على المواقع الإلكترونية وبخاصة منها المدونات ومواقع التواصل الاجتماعي- قد يشكل نوعا من أنواع الاستقصاء؟ إن الإجابة على هذين السؤالين تتأتى بفهم الدور الجسيم الذي تلعبه التكنولوجيات في مجال الاتصال الافتراضي، فقد "مكنت تكنولوجيات الاتصال الحديثة شبكات التواصل الاجتماعي من أن تلعب دور المتتبع والمصحح الناقد للدور الوظيفي للصحفي التقليدي، غير أنه يوجد تخوف من أن هذه النوعية من النشاط الصحفي التي جاءت بها شبكات التواصل الاجتماعي يمكنها أن تحوِّل الصحافة من عمل نخبوي فكري إلى نشاط شعبوي"[24] فالعمل الإعلامي عمل أكاديميين متخصصين، كما أن لصحافة الاستقصاء قاعدة بحثية تخضع لنظام الطرح الفرضي السوسيولوجي، فكيف لصحافة المواطن أن تحقق هذا الشرط الجوهري؟ ومن جهة أخرى فإنّ نشر خبر عبر المواقع الاجتماعية حول ممارسة متسلطة ما، لا يخوّل إمكانية تحوله إلى خبر استقصائي.

كما نجد أن الكثافة اللامتناهية التي تتمتع بها صحافة المواطن، من حيث القدرة على مجاراة آخر المستجدات في الساحة الاجتماعية المحلية والساحة السياسية، وكذا إمكانية نشر المعلومات أيّا كانت طبيعتها أو مجالها وفي أي زمن ومن أي مكان، ليجعل من الصعب التحري عن نزاهة كل خبر منها، "فالإشكال لا يكمن في أن يكون الصحفي محترم ومحترف أو صحفي مواطن بل الأهم هو مسار الحصول على المعلومة والخبر، وطبيعة المصدر، ومدى توفر الموضوعية والمصداقية، وخاصة كيف تقع عملية غربلة الأخبار وما هي معايير انتقاء ما هو صالح للنشر من عدمه."[25]

ومن جانب آخر فإن النقل الخبري في إطار صحافة المواطن نقل متسم في غالب الأحيان بالتنافسية أو الأجدر أن نقول: بمن يستطيع نشر خبر دسم قابل للتعليق والتشاطر عبر صفحات متعددة دون البحث المسبق في حدود مصداقيته، "وفي الحقيقة يصعب القول أن كل ما ينشر في الفضاء الافتراضي يخضع إلى إشراف هيئات تحرير تمرر المعلومة بالعودة إلى مجموعة من المعايير المهنية والقواعد الأخلاقية."[26]

وعليه تبقى الصحافة الاستقصائية صحافة مستقلة متخصصة واحترافية، وفهمها واستعابها ضرورة لابد منها للتفريق بين ما هو منشور بدافع شخصي أو عاطفي كتعبيرعن حرية فردية ديمقراطية، وبين ما هو منشور بدافع استقصائي موضوعي ومنهجي كتعبير عن معطيات واقعية محكومة بالعقل والتنظيم، وتبقى العلاقة بينهما

علاقة "من يخدم من؟" إذ يتم استخدام الخبر المواطني -إن جاز التعبير عنه بهذه الصيغة- كمصدر يستسقي منه الصحفي موضوعا لمادته الإعلامية، "فوسائل الإعلام الاجتماعية توفر للصحفيين طرقا جديدة للاتصال بالمصادر، والوصول إلى المعلومات من جميع أنحاء العالم (...) كما تصبح المعلومات متاحة أكثر، والبحث عنها يحصل أيضا على نحو أفضل."[27]

III-التوجه التكنولوجي في التغطية الاستقصائية التلفزيونية

3-1-مصداقية المعادل البصري/التكنولوجي

ساهمت التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال، والمرتبطة أساسا بجملة الخدمات التي يوفرها الكمبيوتر من خلال برامجه وتطبيقاته، في تسهيل سبل المعالجة الإلكترونية لمختلف البيانات، "وقد سجل تاريخ وسائل الإعلام بظهور هذه التكنولوجيات مرحلة جديدة أحدثت انقلابات في نظام البث والإنتاج والاستهلاك الإعلامي، بوضع شبكات جديدة أو قنوات جديدة مثل الساتل والأقراص السمعية البصرية، وأصبح العالم يعيش تحولات يصفها معظم الباحثين بالثورة الرقمية."[28]

وقدمت التكنولوجيا للبث التلفزيوني خصائصا طورت طرائق العرض، إذ بالإضافة إلى البث الفضائي نتحدث أيضا عن البث الرقمي والتلفزيون الذكي والتلفزيون العالي الجودة، من حيث نقاء الصوت وصفاء الصورة، كما مكنت هذه التكنولوجيات القائمين بالاتصال من صناعة صور إلكترونية تضاهي الحقيقة كصور الواقع الافتراضي، بالإضافة إلى القدرة على "فبركة الصور" ومزجها وتركيبها ثم تقديمها في مشاهد تبدو مرتبطة حقا بمكان الحدث، في حين أنها ليست سوى تطبيقا متاحا عبر برامج المونتاج، والتي تعتمد القص واللصق، وتعديل مضمون الصور وإضافة المؤثرات المناسبة، وهي تعني كذلك القدرة على خلق صورة فائقة، ونركز هنا على كلمة: خلق، والتي تنافي إلى حد كبير كلمة: نقل، فالتكنولوجيا بقدر ما تخدم عملية الإنتاج الإعلامي بقدر ما تضره، خاصة في مجال الإعلام الإخباري، حيث ينبغي للخبر أن يرتبط بمفهوم النقل (النقل الخبري) لا الصناعة الخبرية للحدث، هذه الأخيرة التي نجدها متداولة كثيرا في أيامنا هذه، حيث يقال بصناعة المعلومة أكثر من القول بنقلها.
وقد أشرنا في عنصر سابق، إلى أن الاستقصاء يعني النقل الأمين والموضوعي للمعلومات، بمعنى الاعتماد على خلفية يكون فيها الواقع هو الأساس، ويكون فيها الكشف عن خفايا الظواهر هو المقصد، ونجد التكنولوجيا كمعيار فعّال من معايير التغطية التلفزيونية الآن، قد منحت الصحفيين القدرة على نشر المعلومة بشكل أفضل، وإرفاقها بصور تدعم الخطاب الموجه إلى الجمهور.

إلا أن التحريات المجراة في هذا المجال قد لا تمكّن الصحفي من الحصول على الصور التي تُناظر كلمته المسموعة، أو أنها لا تكون كافية للإقناع بوجود مظهر من مظاهر الفساد السياسي أو غير ذلك من التجاوزات، مما قد يدفعه إلى محاولة خلق صورة أقرب إلى الحقائق التي توصّل إلها، فيلجأ إلى التكنولوجيا كتوظيف المؤثرات أو محاولة محاكاة الأحداث عبر إعادة تمثيلها بصريا، أو حتى عبر اللجوء إلى الشبكة العالمية واستنباط مقاطع بصرية متعلقة بموضوعه، ما قد ينافي الحقيقة -كما يجب أن تكون- فتصنيع الصور لا يعوّض مطلقا عملية نقلها.

إن المعادل البصري في كل طرح استقصائي – في الزمن الحاضر- يدفع إلى التساؤل عن المعادل التكنولوجي المرافق لتلك الصور، فلا ننسى أن تقنيات التصوير والتسجيل الصوتي والمونتاج من شأنها تقديم مضمون إما مختلف بشكل نسبي عن الواقع، أو مغاير له تماما، إذ لا يمكن إقصاء العنصر التقني في عملية الموازنة بين ما نراه عبر الشاشة، وما هو مرئي في الحقيقة بالعين المجردة، ولا يعني هذا تشكيكا في نزاهة الصحفي وإنما تنويها بسلطة التكنولوجيا التي قد تفوق بكثير سلطة الواقع.

وإن كانت مصداقية الصحافة الاستقصائية مطلبا أساسيا، فإن احتمال غيابها في الشاشة التلفزيونية قد يكون أكثر وطأة، وإن كان القول بالمصداقية أمرا نسبيا في كثير من الأحيان، فإن القول به مع التكنولوجيا يبقى مجالا يشوبه الكثير من التشويش، خاصة وأن حدود الفصل بين المكوّن التكنولوجي كخاصية تخدم المجال الإعلامي، وكوسيلة من وسائل التضليل، تظل غير واضحة، "ولنأخذ الطاقة النووية كمثال، فإننا نزود مدننا بتلك الطاقة، كما نصنع القنابل ونشيد الغواصات النووية، وعندما يتم الترويج للقنابل والغواصات على أنها أسلحة للدفاع ليست للهجوم، فإن الخط الفاصل بين الخير والشر يصبح ضبابيا غير واضح المعالم"[29] تماما كما يروج للتطبيقات التكنولوجية كعناصر بنائية لا علاقة لها بالدعاية المُغرضة وأزمة المصداقية التي تهدد الإعلام عامة والسمعي البصري خاصة.

3-2-ثنائية الديمقراطيا والتكنوقراطيا وحدود التمفصل

تُعبِّر الديمقراطية في سياقها العام، عن ذلك التميز الممنوح للشعوب في اتخاذ مصيرها بنفسها، والمشاركة في أخذ القرارات التي تصب في إطار مصلحتها العامة، "وتعد المشاركة السياسية من أساسيات الفعل الديمقراطي، إذ لا يمكن الحديث عن الديمقراطية دون التعرض للمشاركة السياسية لأفراد المجتمع، فهي ضرورية لإرساء قواعد المجتمع الديمقراطي، مثلما هي وجه يعكس العملية الديمقراطية في حالتيها الايجابية والسلبية، وهي كذلك مؤشر ومقياس لنجاح أو تعثر هذه العملية."[30]

ويُعدّ التصويت والانتخاب، والانضمام إلى الأحزاب السياسية والجمعيات المدنية من أوجه التعبير الديمقراطي، وهناك شكل حيوي آخر هو: الإعلام، كما يقدّم الإعلام الاجتماعي مجالا أوسع لحرية التعبير وحرية الرأي.

وقد أحدث الزخم التكنولوجي في مجال الإعلام والاتصال تطورات حثيثة في مفهوم الديمقراطية، وقدّم مفاهيما متجددة، كمفهوم المواطن الرقمي، المواطنة العالمية، الفضاء العمومي الافتراضي، الديمقراطية في الإعلام الاجتماعي، وبدل أن تكون الغلبة للواقع أصبحت للافتراض.

ونلاحظ كيف ساهمت دمقرطة الرأي افتراضيا في تغيير وقائع وتنظيم تظاهرات وحتى تمردات وإسقاط أنظمة حكم، ذلك أن مساحة الديمقراطية التي تكاد تكون مطلقة في مواقع التواصل الاجتماعي وصفحات المشاركة الشعبية، قد ساهمت في تفعيل الديمقراطية في الواقع المعاش، والأصح أن نقول أنّ التكنولوجيا الاتصالية منحت ديمقراطية في العالم الافتراضي، لتعيد إنتاجها في الحياة الفعلية للأفراد.

فسلطة التكنولوجيا تكتسح البيئة الإنسانية، وتؤثر بكثافة على مفهوم المواطنة والديمقراطية، وبالتالي فإن الأفراد ليسوا أحرارا وإنما مقيدون بحكم التقنية "وإن القضايا الأساسية فيما يتعلق بطابع واحتمالات التكنولوجيا الإعلامية الجديدة، تتمثل في معيارنا المعتاد والذي يعبر عنه هذا التساؤل: لمصلحة من، وتحت سيطرة من سيجري استخدامها؟"[31]

فهي تكنولوجيا لا تُسيِّر نفسها طبعا، وهنا تتوضح الصورة: أي ديمقراطية ستسود في ظل التكنوقراطيا؟ أين تصبح السيادة بيد أولئك الذين يملكون سلطة التقنية في صناعتها والتحكم فيها.

وفي سياق متصل، فإن الإعلام لم يعد حبيس الدعم المادي والنظام السياسي فحسب، بل وحبيس الحاجة التكنولوجية أيضا، "فما دامت القرارات التي يتخذها صناع المعدات، ومبرمجو الكمبيوتر، أو مصمموا الأنظمة يتم تغليفها بأحجية التفصيل التقني، فإن الأشخاص الأكثر تأثرا بهذه القرارات (بما في ذلك العملاء، والجمهور العادي، والمستخدمون) سوف يحرمون من فرصة أن يشاركوا أو يستجيبوا للقرار المتخذ، فنطاق القيم الممثلة في النظام الجديد لاتخاذ القرار يمكن أن يقيد، بل يتم تقييده بالفعل على نحو متزايد، من خلال صيغة الأمر المتسترة وراء الضرورة التكنولوجية."[32]

وبالعودة إلى موضوع الدراسة، فإن التوظيف التكنولوجي في عملية الاستقصاء الموجه للبث عبر شاشات التلفزيون، قد يكون سببا في خلق أزمة جديدة مرتبطة بالصورة الاستقصائية: من حيث كونها: رصد الحقيقة، أو رصد التكنولوجيا تحت شعار الحقيقة، فآفاق التكنولوجيا الإعلامية لن تتوقف عند هذا الحد وستحاول في كل

مرة "عبر فئة التكنوقراطيين" تقويض بؤرة الإعلام الاستقصائي وتهديده بالسلاح الاستراتيجي الجديد: التكنولوجيا.

خاتمة:

على ضوء ما سبق ذكره في هذه الدراسة، فإن التغطية الاستقصائية عبر شاشات التلفزيون تتطلب مهنية واحترافية عالية من طرف الصحفيين العاملين فيها، خاصة وأنها تشترط توظيف المنهجية العلمية والتقصي الهادف إلى معرفة الحقيقة، وتعد مصداقية المصادر التي يعتمدها الصحفي في تحقيقه المفتاح الأساسي لاكتشاف الحقائق، ما يقتضي إلماما واسعا بحيثيات الموضوع المتدارس والشخصيات المحيطة به وحتى تلك التي لا تظهر في الصورة.

ومن جانب آخر، نجد الصحافة الاستقصائية تواجه عراقيلا شتى، تتمثل في احتياجها للدعم المالي، ما قد يفرض على صحفييها التستر عن تجاوزات المؤسسة الداعمة، والمؤسسات الحاكمة الأخرى ذات الصلة بها، بالإضافة إلى ضرورة الدعم التكنولوجي الذي يفرض سلطة صاحبه.

كل هذه الإشكالات تكشف في النهاية ما يمكن أن تشكله الصحافة الاستقصائية من تهديد للأنظمة الجائرة، لذا تجري محاولات للحد من هيمنتها عبر التوليد المتزايد للحاجة التكنولوجية كحاجة تبررها غايات أعمق، أهمها: ترسيخ التكنوقراطيا الإعلامية حيث تغدو الفئة المُصنِّعَة للتقنية المتحَكّم الأوحد في الشأن الإعلامي والعالمي والسلطوي.

الإحالات والهوامش

1-Ignacio Ramonet, le cinquième pouvoir, le monde diplomatique, octobre 2003, un article publié sur le lien: http://www.monde-diplomatique.fr/2003/10/RAMONET/10395

2-عيسى عبد الباقي، الصحافة الاستقصائية (المحاضرة الأولى)، موقع الصحفي العربي، أفريل 2010، مقال منشور على الرابط: http://www.alsahfe.com/News-428.htm

3-المرجع نفسه.

4- المرجع نفسه.

5-المرجع نفسه.

6-المرجع نفسه.

7-مارجريت لوني، أربعة أمور لا تنطبق على الصحافة الاستقصائية، شبكة الصحفيين الدوليين، جانفي 2013، مقال منشور على الرابط: http://arij.net

8-James Hollings, aiming for the stars : Teaching investigative journalism, Global investigative journalism network, March 2014, an article published on the link : http://gijn.org/2014/03/24/aiming-for-the-stars-teaching-investigative-journalism/

9- مارجريت لوني، أربعة أمور لا تنطبق على الصحافة الاستقصائية، مرجع سبق ذكره.

10-أريج، على درب الحقيقة: دليل "أريج" للصحافة العربية الاستقصائية، دائرة المكتبة الوطنية، الأردن، 2009، ص.18

11-عمر الحياني، الصحافة الاستقصائية ومهمة البحث عن الحقيقة، الجمهورية نت، أوت 2009، مقال منشور على الرابط:

http://www.algomhoriah.net/articles.php?id=1508
12-أريج، على درب الحقيقة: دليل "أريج" للصحافة العربية الاستقصائية، مرجع سبق ذكره، ص ص55-56.
13-المرجع نفسه، ص.17
14-المرجع نفسه، ص.73
15-المرجع نفسه، ص.95
16-المرجع نفسه، ص ص17-18.
17-لبنى جلال سكيك، استخدام التكنولوجيا الرقمية في النشرة الإخبارية التلفزيونية: نشرة الأخبار الرئيسية في التلفزيون الجزائري نموذجا، مذكرة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2008، ص.168
18-جمال الجاسم المحمود، التقرير الإخباري التلفزيوني، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 23، العدد الثاني، 2007، ص.547
19-اتحاد إذاعات الدول العربية، المعالجة الخبرية التلفزيونية العربية بين المتطلبات المهنية والتوجهات السياسية: سلسلة بحوث ودراسات إذاعية (85)، الإدارة العامة لاتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، 2006، ص ص11-12.
20-أكاديمية بي بي سي، الصحافة الاستقصائية، مقال منشور على الرابط:
http://www.bbc.co.uk/academy/arabic/how-to/investigative-journalism/article/art20130702112133948
21- مدونة أنا حرة، ما هي الصحافة الاستقصائية؟، جانفي 2013، مقال منشور على الرابط:
http://anahora.blogspot.com/2013/01/blog-post_29.html
22-محمد عبد الفاتح، قناة "أو ن تي في" تنشئ أول وحدة للصحافة الاستقصائية التلفزيونية، شبكة الصحفيين الدوليين، أفريل 2012، مقال منشور على الرابط:
https://ijnet.org/ar/blog/154018
23-جمال الزرن، البيئة الجديدة للاتصال أو الايكوميديا عن طريق صحافة المواطن، مجلة الباحث الإعلامي، العدد17، 2012، ص.29
24-المرجع نفسه، ص.32
25-نفس المكان.
26-نفس المكان.
27-The select committee on communications, The future of investigative journalism : 3rd report of session, the house of lords, London, 2012, p57.
28-عقيلة أوطيب، التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال في التعليم: دراسة وصفية تحليلية للتعليم عبر الانترنت، مذكرة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2007، ص.24
29-فرانك كيلش، ترجمة: حسام الدين زكرياء، ثورة الإنفوميديا: الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك، عالم المعرفة، الكويت، 2000، ص.500
30-شريفة ماشطي، المشاركة السياسية أساس الفعل الديمقراطي، مجلة الباحث الاجتماعي، العدد 10، سبتمبر 2010، ص.143
31-هربرت أ. شيللر، ترجمة: عبد السلام رضوان، المتلاعبون بالعقول: كيف يجذب محركوا الدمى الكبار في السياسة والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟، عالم المعرفة، الكويت، 1999، ص208.
32-المرجع نفسه، ص214.